أثر الكفر (١)

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾

الأستاذ: محسن الأسدي

هذا الختامُ للآية المباركة ٩٧ من سورة آل عمران وهي من آيات فريضة الحجّ، استوقفني طويلاً، لا أدري أ لأنَّ فريضة الحجِّ هي الوحيدة بين العبادات، التي ذُيل وجوبُها في التنزيل العزيز بمثل هذه الخاتمة، أو لأنَّ مفهوم الكفر خطير بما له من آثار وخيمة على الناس؛ على فطرتهم وعقائدهم واجتماعهم، وعلى أمانهم وسلامتهم في الدنيا والآخرة، أو لأنَّ الذين تصدوا لرسالات السماء ولم يؤمنوا بها، وقتلوا الأنبياء والصالحين هم أولئك

الذين وصفهم التنزيل العزيز بالكافرين، أو لأنَّ الكثير من آيات القرآن العزيز توعّد أئمّة الكفر وأتباعه ومريديه بخزي في الدنيا، وأما في الآخرة: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾.[١] أو لأنَّ معرفة الكفر موضوع مهم بل هو الأهم للإنسان؛ لكيلا يقع فريسةً له، فيردى؟!

فهذا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، وقد كان من الوعي بدرجة عالية، جعلته يقول: «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ؛ مخافةَ أن يُدركني».[٢]

وذاك الشاعر الكبير أبو فراس الحمداني يقول:

عرفتُ الشرَّ لا للشرّ و لـكـن لتـوقّـيه

ومن لا يعرف الشرَّ من الـخير يـقع فـيه

وهل هناك شرٌّ أكثر قُبحاً وظلماً وفساداً وخطورةً من الكفر والشرك بالله عزَّوجلَّ؟!

لهذه الأسباب ولغيرها صرتُ أقف قليلاً عند الآيتين المباركتين:

الأولى : ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾.[٣]

والثانية :

﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْراهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...**﴾.[٤]

---

١. سورة مريم : ٣٧ .

٢. الأمالي، الشيخ الطوسي : ٢٢٢؛ بحار الأنوار، العلامة المجلسي٢٨: ٤٢؛ مسند أحمد بن حنبل ٤ : ١٥٤.

٣. سورة آل عمران : ٩٦ .

٤. سورة آل عمران : ٩٧ .

وهي الأهمّ في دلالتها على وجوب الحج تمهيداً بل لضـرورة الوقـوف عنـد جزئهـا الأخير: ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ**﴾.

والذي بدوره يستدعيني أولاً لمعرفة الكفر في القرآن الكريم معنًى ومفهوماً وأنواعاً و...

الآية الأولى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.[1]

سبب النزول :

ولعلَّ قراءتنا لسياق الآيات السابقة واللاحقة لهاتين الآيـتين ٩٦-٩٧ تـدلنا علـى أنهما من ضمن ما تهدفان إليه هو الردُّ على أهل الكتاب .

السيد العلامة الطباطبائي في الميزان: «الآيتان جواب عن شبهة أخرى كانت اليهـود توردها على المؤمنين من جهة النسخ وهي ما حدث في أمـر القبلـة بتحويلـها مـن بيـت المقدس إلى الكعبة ...».

وقد ذُكر أنَّ نزول هذه الآية المباركة، وما تحمله من الأوليّة ﴿**أَوَّلَ بَيْـتٍ**﴾ وهو لغـةً: (ابتداء الشيء، أو هو الذي لم يسبقه غيره...) ومن كونه ﴿**مُبَارَكاً وَهُـدًى لِّلْعَـالَمِينَ**﴾، كـان بسبب تفاخر جرى بين اليهود من جهة والمسلمين من الجهة الأُخرى، فقالت اليهـود: بيـت المقدس قبلتنا، وهوأفضل وأعظم مـن الكعبـة وأقـدم؛ لأَنـه مهـاجر الأَنبيـاء وفي الأَرض المقدسة! وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل!

وهناك شبه أخرى أثارها اليهود حين رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد حوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فعدّوا عمل رسول الله صلى الله عليه وآله باطلاً وهو موجب للطعن بنبوّته صلى الله عليه وآله.

لماذا ؟

يأتي جوابهم بأنّ بيت المقدس وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة الأنبيـاء،

---

٢. آل عمران : ٩٦ .

فهو أفضل من الكعبة وأحقُّ بالاستقبال، وبالتالي فتحويل القبلة منه إلى الكعبة يعدُّ باطلاً!

فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾.[1]

الأوليّة في الروايات ، منها :

ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله حين سئل عن أول مسجد وضع؟

فقال صلى الله عليه وآله: «**المسجد الحرام ثمَّ بيت المقدس**».

وسئل الإمامُ عليٌّ عليه السلام أهو أول بيت؟

قال عليه السلام: «**لا، قد كان قبله بيوت، لكنه أول بيت وضع للناس، وأول من بناه إبراهيم عليه السلام ثمَّ بناه قوم من العرب من جرهم، ثمَّ هدم فبنته العمالقة، ثمَّ هدم فبناه قريش**».

الواحدي في البسيط: عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عن أبيه عن النبيِّ صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ الله تعالى بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور، وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم».

وروي أيضاً عن عليّ أنه سأله رجل: أهو أول بيت؟ فقال عليّ: «لا؛ قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة».

من أقوالهم :

وأما الأقوال في كونه ﴿**أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ...**﴾، فهي كثيرة؛ تدور حول كونه الأول الذي لم يسبقه غيره سواء أكان موضعاً؛ فموضع الكعبة أول بقعة خلقها الله من الأَرض، أو قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين، أم كان بناءً فهو أول بيت بناه آدم أو الملائكة في الأرض،

---

١. انظر الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي؛ أسباب النزول، للواحدي؛ تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي؛ التفسير الكبير للرازي (ت ٦٠٦ هـ) وغيرها: الآية. بتصرف بسيط .

أو كان ظهوراً؛ فهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الله تعـالى السـماء ثم دحيـت الأرض من تحت الكعبة، أوكان فضيلةً، فهو الأول في كونه مباركاً وهدًى وأماناً للعالمين، أو هو أول بيت رغب فيه وطلب منـهُ البركـة. أو الأول **للعبـادة**: أول المسـاجد علـى وجـه الأرض؛ **أول بيت طيف به**، أول بيـت حُـجّ بعـد الطوفـان، أو بعـد الأذان الخالـد للـنبيِّ إبراهيم عليه السلام وهو الأرجح قرآنيًّا...

وأما عن فضائله :

فللمفسرين كلام طويل فيها، وبالذات الرازي ذكر كلاماً مفصلاً حول أوليّة البيـت وفضائله، ليخلص إلى أنَّ الكعبة أشرف من بيت المقـدس، وبالتـالي بطـلان شـبه اليهـود وأقوالهم، منها:

أنَّ باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام بـأمر مـن الله تعـالى، الآيـة ٢٦ الحـج. والخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام باني بيت المقدس.

أنَّ الكعبة كانت موجودة في زمان آدم عليه السلام، وهذا هو الأصوب ويدل عليـه وجوه:

الأول: أنّ تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿**أُولَـئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مّنَ ٱلنَّبِيّيْنَ مِن ذُرّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّن حَمَلْنَا مَعَ نُـوحٍ وَمِـن ذُرّيَّـةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـاتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً**﴾.[1]

فدلّت الآية على أنّ جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله، والسجدة لابدّ لها من قبلة، فلو كانت قبلة شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضـعاً آخـر سـوى القبلـة؛ لبطل قوله: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّـةَ**﴾؛ فوجـب أن يقـال: إنَّ قبلـة أولئـك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة، فدل هذا على أنّ هذه الجهة كانت أبداً مشرفة مكرمة.

---

١. سورة مريم : ٥٨ .

الثاني: أنّ الله تعالى سمّى مكة أمّ القرى، وظاهر هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف..

وأما كون بيت المقدس يشارك البيت الحرام في الطاعات والعبادات بدليل قوله عليه الصلاة والسلام:

«لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا».

فلا يدل على أنه مشارك له في جميع الأمور حتى في وجوب الحج، فهذا غير لازم...[1]

﴿لِلنَّاسِ﴾

فالبيت الحرام هو للناس جميعاً ، هكذا رسم دوره من قبل السماء أن يتسع هذا الدور بحقوقه على الناس وبواجباته عليهم وبمنافعه لهم بأفرادهم وشعوبهم وقبائلهم ؛ فهو ليس لفرد دون آخر أو لفئة دون أخرى ، أو لقبيلة دون غيرها أو لأمّة دون أُخرى .... فهو مأمنٌ وموئلٌ وموضع عبادة لهم.

﴿سَوَاءً ٱلْعَـاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.[2]

وهكذا أُسس لهم جميعاً للمقيم به والقريب منه والمجاور له، وللطارئ والنازع إليه والقاصده من غربته ومن بلد بعيد، ومن هذا تُعلم مكانة هذا البيت وتُعرف منزلتُه التي أنزله

---

١. انظر في هذا كله الواحدي في تفسيره : البسيط، وفي الهامش: جزء من أثر طويل، أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» ١، ٣٢ – ٣٤؛ وورد في «تفسير البغوي» ٢، ٧٠؛ وكنز العرفان للسيوري ١ ؛ ٢٥٩؛ ومجمع البيان للطبرسي؛ والبحث الروائي في تفسير الميزان للسيد الطباطبائي؛ وتفسير معالم التنزيل، البغوي (ت٥١٦ هـ)؛ وتفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ وتفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ) وله كلام مفصل، ذكرنا شيئاً يسيراً ملخصاً منه: الآية .

٢. سورة الحج : ٢٢ .

الله تعالى فيها، وتدرك فضائلُه على من انفتح عليه من الناس، وعلى الموحدين مـن جميـع بقاع الأرض.

أمّا ﴿بِبَكَّةَ﴾ ففي تسميتها هذه ذكروا وجوهاً كثيرة، منها :

إنها مرادفةٌ لمكة فَأبدلت ميمُها باءً، والعربُ تُعاقِبُ بين الباء والميم في مواضع، قالوا: هذا عليَّ ضَرْبَةُ لازم ولازِب، ... تَبَاكَّ الناسُ: ازدحموا، فسُمِّيت بَكَّة، لازدحام الناس بهـا، يَبُكُّ بعضهم بعضًا، يبكّ بها الرّجال والنّساء، يدفع ويصلي بعضهم بين يدي بعـض والمـرأة تصلّى بين يديك وعن يمينك وعن شمالك وعن يسارك ومعك، وَيُمُرُّ بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلاّ هناك؛ لأنّه إنما يحرم أو يكره فى سائر البلدان.. أو تَبُكُّ أعناق الجبـابرة، أي تَدُقُّها..

وبكّة ومكّة مترادفتان، فبكّة: اسم لبطن مكة، أو لموضـع البيـت والمطـاف، وقيـل: للمسجدِ نفسِه، وأيَّدوا هذا بأن التباكَّ وهو الازدحام إنما يحصُل عند الطـواف، ومكّـة تمـام البلد.[1]

﴿مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

وهما من أعظم فضائل البيت الحرام، فكونه ﴿**مُبَارَكاً**﴾؛ لأنّ فيه لمن حجّـه واعتمـره وطاف به وعكف عنده: الخير الكثير.. مضاعفة الثواب.. تكفير الذنوب والسـيئات.. نفـي الفقر.. كثرة الرزق.. وأيضاً من دخله أمن.. وبمـا أنَّ البركـة لهـا معنيـان: أحـدهما: النمـو والتزايد، والآخر: الثبوت أو البقاء والدوام.. فالطاعات فيه يزداد أجرها ويتضاعف ثوابهـا للناس فيه وهم بين طائف وقائم وراكع وساجد ومتأمل ناظر للبيت وآياته، وثبوت العبادة فيه دائماً، حتى يحكى أن الطواف بهِ لا ينقطع أبداً، فبركتُهُ دوام العبادة فيه ولزومهـا، ولمـن

---

١. انظر تفسير الدر المصون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)؛ والتفسـير البسـيط للواحـدي؛ ومجمـع البيـان للطبرسي وغيرها: الآية .

أراد المزيد فللرازي كلام مفصل نافع حول هذين المعنيين للبركة.

﴿وَهُدًى﴾ :

يقول ابن عاشور: وإذا كان أوّلَ بيتِ عبادة حقَ، كان أوّل معهد للهدى، فكان كُلّ هدى مقتبساً منه فلا محيص لكلّ قوم كانوا على هدى من الاعتراف به وبفضله، وذلك يوجب اتّباع الملّة المبنيّة على أسس ملّة بانيه.. ووصفه بالمصدر في قوله ﴿وَهُدًى﴾ مبالغة لأنه سبب هدى. وجُعل هدى للعالمين كلِّهم لأنّ شهرته وتسامع النَّاس به، يحملهم على التساؤل عن سبب وضعه، وأنه لتوحيد الله، وتطهير النُّفوس من خبث الشرك فيهتدي بذلك المهتدي، ويرعوي المتشكك...

فهو بيان ودلالة على الله بما فيه من الآيات والأحكام والآداب، يهتدون بها إلى جهة صلاتهم وأدعيتهم، يهتدون بها إلى الجنة بحجّه وطوافه والاعتكاف فيه..، وبالتالي فهو رحمة وصلاح ومزيد هداية لهم.. ويجوز في ﴿مُبَاركاً وَهُدًى﴾ حمله على جميع ألوان الخير والعطاء والزكاة والرشاد، إذ لا تنافي. هذا إضافةً إلى كونه ﴿.. مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ ..﴿ .. قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾.[1]

والآية الأُخرى :

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱلله غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

وهذه الآية تتضمن :

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

فلابن عاشور كلام طويل نكتفي منه بقوله: «ووصف الآيات ببيِّناتٍ لظهورها في علم المخاطبين. وجماع هذه الآيات هي ما يسّره الله لسكّان الحرم وزائريه من طرق

---

١. التحرير والتنوير؛ وانظرمجمع البيان وغيرهما : الآيات .

الخير... وبقوله: إنه آيات؛ لدلالته على نبوّة إبراهيم بمعجزة له وعلى علم الله وقدرته، وإنّ بقاء ذلك الأثر مع تلاشي آثار كثيرة في طيلة القرون آيـة أيضـاً».. وقـد أضـاف عبارتـه الأخيرة هذه لما ذكره الزمخشري من اشتماله على آيات: لأنّ أثر القدم في الصخرة الصـماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثـرة أعدائـه مـن المشـركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية. ويجوز أن يراد فيه آيـات بينـات مقـام إبـراهيم، وأمن من دخله... ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما. دلالـة علـى تكـاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما...[١]

﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾

فمن دخل هذا البيت المقيد بتلك القيود من البركة والهدى والآيات البينات من مقام إبراهيم وغيره، مراعياً لها، كان آمناً! وبلا ريب أنَّ هذا الأمان جاء استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾

ولعلّ الآية جاءت مذكرةً العرب بفضل الله عليهم أن جعل بقعة مباركة بينهم تتصف بالأمان، فيما الآخرون من حولهم يعانون من فقدانـه: **﴿أَوَلَـمْ يَـرَوْاْ أَنَّـا جَعَلْنَـا حَرَمـاً آمِنـاً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللهِ يَكْفُرُونَ﴾**.[٢]

وهذه الآيات الثلاث بذكرها لصفة الأمـن تُبـيّن أهميتـه في حيـاة النـاس تطـوراً وتكاملاً، وضرورته لمسيرتهم العبادية خاصة في هذه البقاع المباركة!

ولعلّ من دخله، وقد ولج الإيمان قلبه، يؤدي فيه مناسـكه وعباداتـه بنيّـة صـادقة

---

١. تفسير التحرير والتنوير ؛ وتفسير الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) وغيرهما : الآية .

٢. سورة العنكبوت : ٦٧ .

خالصة لله تعالى، كان آمنًا من الكفر وسيئاته؛ ومما يترتب عليه من عذاب أليم ومهين، جديراً بأجره وثوابه وإحسانه!

وعن السلمي في تفسيره:

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله: ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**﴾، قال: من دخله على الصفة التي دخلها الأنبياء والأولياء والأصفياء كان آمنًا من عذابه كما آمنوا!

وفي قول: من دخله كان آمنًا من عقابه، ولله في الدنيا ثواب وعقاب، فثوابه العافية وعقابه البلاء، فالعافية أن يتولى عليك أمرك، والعقوبة أن يكلك إلى نفسك!

وفي قول آخر: كان آمناً من هواجس نفسه ووساوس الشيطان![1]

ثمَّ اختصَّ هذا البيت المبارك بمشيئة الله أن يعبدوه فيه، فرُفعت قواعده ـ بعد أن اندرست واختفت بالطوفان إن صحَّ الخبر ـ من قبل إبراهيم؛ وابنه إسماعيل كان هو الآخر ملازماً له في هذا المشروع المبارك خطوةً بخطوة، يُعينه بدءاً بقواعد البيت حين رفعها، وبوضع الطين والحجارة في جدرانه، والحجر الأسود في مكانه، وبتطهيره، وهما يردّدان معاً ذلك الدعاء المبارك، الذي راح من بعدهما يردّده الصالحون في أعمالهم وعباداتهم..:

﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾.[2]

ثمَّ أمر نبيَّه إبراهيم عليه السلام، وفي قولٍ: إنَّ المأمور هو نبينا صلى الله عليه وآله في حجة الوداع؛ أن يُنادي داعياً الناس بأنّ الله أوجب عليهم حجَّ بيته الحرام: ﴿**وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ ٱلأَنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ**

---

١. انظر حقائق التفسير، السلمي (ت ٤١٢ هـ) : الآية .

٢. سورة البقرة : ١٢٧ .

ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ * ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ...﴾.[١]

وهذا الإيجاب بأوامره العديدة على لسان نبيِّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام يُعدُّ الأقدم؛ ليُعاد، ويقع مثله في آيات قرآنيّة مباركة أُخرى على لسان خاتم الأنبياء رسول الله محمد صلوات الله تعالى عليه:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ للهِ﴾.[٢]

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.[٣]

ليكون: **﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾**.[٤]

﴿... لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[٥]

وهم قاعدة مشروع العبادة هذه في بقعة الله المباركة هذه، حيث بيته الطاهر ومسجده الحرام وكعبته المباركة، التي ظلَّ يحجُّ إليها المسلمون بأعداد مليونية في عبادة وجبت على كلِّ من توفرت فيه الاستطاعة بقوله تعالى:

﴿وَلِلهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...﴾.[٦]

إذن؛ فبعد ذكر منزلة هذا البيت المبارك، وفضائله وما فيه من آيات، نحن أمام رحلة عبادية واجتماعية وثقافية وتعارفية نافعة تتحدث عنها تلك الآيات وهذه الآية المباركة،

---

١. سورة الحج : ٢٧ ـ ٣٠ .
٢. سورة البقرة : ١٩٦ .
٣. سورة البقرة : ١٥٨ .
٤. سورة البقرة : ١٢٥ .
٥. سورة الحج : ٢٦ .
٦. سورة آل عمران : ٩٧ .

ولتدخلها في المنظومة العبادية للإسلام، وتتميز هذه العبادة بأهمية كبرى، خاصة إذا لاحظنا وجوبها المستفاد من آيات عديدة كما ذكرنا أعلاه؛ فضلاً عن السنّة، ووجوبها المؤكّد في الآية المباركة: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ...**﴾، بأعلى مراتب التوكيد، وبأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيداً لحقِّه وتعظيماً لحُرْمته، التي ذكرت في آيات عديدة: ﴿**ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ**﴾ ، ﴿**ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾ ...

﴿ **وَلِلَّهِ** ﴾

القرطبي: ﴿**وَلِلَّهِ**﴾ اللام في قوله ﴿**وَلِلَّهِ**﴾ لام الإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا؛ فقد وكّده وأوجبه...

ابن عاشور: وفي هذه الآية من صيَغ الوجوب صِيغتان (لام الاستحقاق) وحرف (**عَلى**) الدال على تقرّر حقّ في ذمة المجرور بها... مما يعني أنه لا فقط حجٌّ واجب بل حقٌّ لله تعالى لازم في رقاب جميع الناس وبالذات ﴿**مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾.

الرازي: اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد أحدها: قوله ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ**﴾، والمعنى أنه سبحانه لكونه إلٰهاً ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرفوا. وثانيها: أنه ذكر ﴿ٱلنَّاس﴾ ثم أبدل منه ﴿**مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾، وفيه ضربان من التأكيد، أما أولاً فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكرير، وذلك يدل على شدة العناية، وأما ثانياً فلأنه أجمل أولاً وفصل ثانياً وذلك يدل على شدة الاهتمام. وثالثها: أنه سبحانه عبّر عن هذا الوجوب بعبارتين إحداهما: لام الملك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ وثانيتهما: كلمة ﴿عَلَى﴾ وهي للوجوب في قوله ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾. ورابعها: أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام ... وثامنها: أنَّ في أول الآية قال: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ فبيّن أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلٰهية وكبرياء الربوبية، لا لجرّ نفع ولا لدفع ضرّ، ثم أكدّ هذا في آخر الآية بقوله: ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ**﴾.

فالتنزيل العزيز في آية وجوب الحج ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ...**﴾ ذكـر أمـوراً كما يقول السيوري: تدل على توكيد هذه الفريضة وأهميتـها مـا لم يـذكره في غيرهـا مـن وجوه: إيراده بصيغة الخبر.. إيراده في صورة الاسميّة.. إيراده على وجه يفيد أنه حقّ لله في رقاب الناس.. تعميم الحكم أوّلاً ثمّ تخصيصه وهو كإيضاح بعد إبهام وتثنية وتكرار للمراد فهو أبلغ من ذكره مرّة واحدة.. تسمية ترك الحجّ كفراً من حيث إنه فعل الكفرة، وأنّ تركه من أعظم الكبائر؛ ولذلك قال ﷺ: «...**فليمت** ...». ذكر الاستغناء ... وسيأتي الكلام عنه.[١]

لهذا فلا ينفكّون عن ذلك الوجوب وعهدة هذا الحـقّ إلاّ بأدائـه وفـق شـروط وأحكـام تكفّلت بها كتب الفقه عند المسلمين. يضاف إلى هذا كلّه ما سيأتي الكـلام عنـه في الجـزء الأخير من الآية.

﴿ **لِلنَّاسِ** ﴾

فكما البيت الحرام ﴿**وُضِعَ لِلنَّاسِ**﴾، ﴿**قِيَامًا لِّلنَّاسِ**﴾،[٢] ﴿**مَثَابَةً لِلنَّاسِ**﴾.[٣]

وكلٌّ منها يحمل تعميماً واضحاً ومن خلاله يُفهم أنَّ هذا البيت هـو للنـاس جميعـاً، ولجميع الديانات؛ بوصفه بيت إبراهيم عليه السلام الذي تنتسب لـه الـديانات، فـإنَّ هـذا العموم نجده أيضاً في الأذان الأول للحج: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...**﴾، وكذلك نجـد ﴿**عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ عاماً أُبدل منه ﴿**مَنِ ٱسْتَطَاعَ**﴾ وهو بدلُ بعضٍ من كلّ...

إذن؛ فالناس مطالبون باحترام البيت الحرام، الذي ﴿**وُضِعَ**﴾ لهم جميعـاً ، وجعلـه الله ﴿**قِيَامًا**﴾ و ﴿**مَثَابَةً**﴾ لهم، بكلّ ما تحمله هذه المفردات من المعاني الكبيرة والمنافع الجليلـة ..

---

١. تفسير الجامع، القرطبي؛ تفسير التحرير والتنوير: الآية؛ التفسير الكبير/ الرازي، وبقيـة كلامـه يـأتي في جزء الآية الأخير؛ تفسير الكشاف؛ تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل/ النسفي (ت٧١٠هـ)؛ وانظـر كنز العرفان في فقه القرآن، للشيخ السيوري (ت٨٢٦هجرية) ١ : ٢٦٧ .

٢. سورة المائدة : ٩٧ .

٣. سورة البقرة : ١٢٥ .

والإقرار بالبيت وبأوليّته وبمعالمه وبأنَّ: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ وبأداء الحج المفروض عليهم بالأذان الأول لنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وبالآيات الأخرى والتي منها هذه الآية المباركة: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ...**﴾.

وكلا مفردتي (الحج والعمرة) الواردتين في الآيات تحملان لغةً معنى القصد إلى مكان عامر؛ وكثرة التردد والاختلاف إليه وزيارته، وهما هنا المراد منهما التردد على بيت الله الحرام حجًّا وعمرةً، وهما نوعا عبادة وزيارة، كانتا تُؤديان حتى قبل البعثة النبوية الشريفة.. فشكّلت هذه الآيات والأحاديث النبوية كقوله : «خذوا عني مناسككم» وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، وبعض الصحابة كجابر بن عبد الله الأنصاري وروايته في حجّة الوداع مشروعاً عباديًّا عظيماً وأخلاقيًّا كبيراً واجتماعيًّا واسعاً .. وليجعل الله تعالى عبادته في هذا البيت المبارك، وفيما حوله من البقاع دائمةً نافعةً، تتجلّى درجاتُها، وتسمو أجورُها، وتتضاعف حسناتُها، وتُغفر فيه الذنوب وإن عظمت، وتزكو فيه النفوس وإن كدرت، دون بقاع الأرض، عبر فريضة حجٍّ شملت الناس كافةً؛ شرطها الاستطاعة؛ ولتؤسس حلقة متميزة في منظومة عبادية، تُعدُّ رحلةً هي الأعظم نفعاً والأكثر هداية والأشمل بركةً، لها أزمنة وأمكنة خاصة، ولها مناسك متميزة متعددة .. فالصلاة بأوقاتها المعروفة فرائضها ومستحباتها يمكن للإنسان المكلف أن يؤديها في بيته أو في مسجد أو في أي مكان آخر، وكذا الصيام واجباً كان كشهر رمضان أو مستحباً يمكن للإنسان المكلف الإتيان به في أي مكان يشاء وبتوفر شروطه، .. وهكذا الواجبات المالية كالزكاة .. أي أنَّ هذه الأمور ليس أداؤها والعمل بها مخصوصاً بمكان معين. أما فريضة الحج بركنيها: عمرة التمتع؛ ومتعة الحج بمناسكهما المخصوصة؛ فلها لا فقط مكان مخصوص بل ووقت مخصوص، لا تصحُّ في غيرهما، فلا بدَّ للمسلم المكلف أن يرحل في ذلك الوقت المحدد عن وطنه وأهله وعمله وماله وتجارته إلى حيث شهر ذي الحجّة وتلك المنازل والمشاعر المباركة في مكة المكرمة؛ ليؤدي مناسك فريضة الحج ومناسك العمرة .. وحتى العمرة المفردة، وإن كان وقتها طيلة السنة، إلاّ أنها لا تؤدى إلاّ في مكان مخصوص؛ البيت الحرام

بعد الإحرام من أحد المواقيت. هذا أولاً.

وثانياً: أنَّ الفرائض العبادية كالصلاة والصيام لا يُكتفى منها بمرّة واحدة في العمر، بل هي مستمرة مادام المكلف حيًّا تتوفر فيه شروطها، فيما فريضة الحج على الإنسان المسلم المكلّف المستطيع، تكون مرّة واحدة وإن طال عمره؛ ويبدو أنَّها إما كافية لإمداد الإنسان بآثارها المعنوية .. وإما لأنَّ فيها تعباً ومشقةً وسفراً بعيداً ومالاً كثيراً مبذولاً، وفراقاً للأحبة والأهل، وتعطيلاً للعمل.. فجعلتها السماء مرةً واحدةً، ولعلَّ هذا ـ والله أعلم بمراده ـ رحمةً بالعباد ورفقاً بهم، وتيسيراً لهم، ورفعاً للحرج والمشقة والمسؤولية، فهي رحلةٌ لها متاعبُها وأثمانُها من مال وجهد وفراق فضلاً عما قد يحدث من مخاطر، ولكنَّ عطاءَه تعالى يكون أضعافاً كثيرةً حتى روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى، إلاّ كتب الله بها له حسنة ورفع له بها درجة».

وهذا جزء من كون هذا البيت ﴿مباركاً﴾!

المهم أنها عبادة العمر؛ فرضت لمرّة واحدة في حياة الإنسان. فيما الصيام فرض لشهر واحد وهو شهر رمضان المبارك من كلّ سنة، والصلاة لخمس أوقات يومياً فيما صلاة الجمعة ليوم واحد في الأسبوع، وهذا التنوع في العبادات؛ فرائضها ومستحباتها، أشكالها وكيفياتها وأعدادها وأزمنتها وأماكنها يصنع لنا هذه المنظومة العبادية الكبرى، التي تحتاجها النفس الإنسانية في يومها وسنتها وعمرها؛ لرقيّها الروحي والنفسي؛ ولاستقامتها؛ ولتكتمل به درجاتها؛ وهي تشقُّ طريقها نحو بارئها سبحانه وتعالى، وما أعدّه لها هناك حيث الدار الآخرة من حياة طيبة تتصف بالخلود والبقاء؛ **بالخير والعطاء، والأجر والثواب، والمغفرة والرحمة**، وتتوفر على نعيم يُوصف بأنّه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ...!!

فكم هي عظمة الديانات وبعثة الرسل والأنبياء وإنزال الكتب وبيان الشرائع الحقّة، وكم هو عظيم هدفها؛ هداية الناس إلى وحدانية الله وعبادته وحده وحده، وما يترتب على ذلك من خير وعطاء وأمن وسلام في الحياة الدنيا وفي الآخرة!

وهذا المشروع بكلّ ما يحمله من البيت الحرام وبآياته وبحجّه، يدخل في ملّة إبراهيم عليه السلام، التي أمر الله الناس جميعاً باتباعها.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وإلاّ فهو الكفر لمن أنكر تاريخ البيت وآياته ومناقبه، ولمن امتنع وتمرّد عن أداء حجّه، فالكفر الذي ألفته نفوس كثيرة جدًّا وكرهت مفارقته؛ وبأنواعه ومصاديقه؛ هو على الضدِّ من ذلك كلّه، وليس هذا فقط، فقد استبسل أئمة الكفر وزعماؤه في مقاومة كلّ مشاريع الأنبياء التي هي مشاريع ومناهج السماء ومنها هذا البيت بفضائله ومعالمه وآياته وحجّه والاعتمار به، حتى جاء: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾، صريحاً في مواجهة معارضتهم وتمنعهم وتعاليهم وإنكارهم ..

فهذا وغيره الكثير من مواقف الكافرين كما تحدث عنها التنزيل يدفعنا إلى معرفة معنى الكفر في اللغة والاصطلاح وفي التنزيل العزيز؛ وسننتهي إلى معانٍ عديدة تدور لغةً حول: الستر والتغليف والتغطية والكتمان ...

فالكفر لغةً :

مصدر من الفعل كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْرًا وكُفْرانًا وكُفُورًا؛ يقال: كَفَرَ بالله، يَكْفُر كُفْرًا وكُفُورًا وكُفْرانًا، فهو كَافِر، والجمع: كُفَّارٌ، وكَفَرةٌ. وهو: كَفَّارٌ أيضاً، وهو: كَفُور، والجمع: كُفُرٌ. وهي: كافرة، والجمع: كَوَافِر؛... وكَفَرَ الشَّيْءَ وعليه كفْرًا: سَتَرَهُ، وغَطَّاهُ، وكَفَرَ الْجَهْلُ عَلَى عِلْمِهِ: غَطَّاهُ .. فالكفر، بالفتح: التغطية، تغطيةٌ تامة كثيفة لا يظهر معها شيءٌ من المغطّى. وكفرت الشيء أكفره، بالكسر، أي سترته ... وكَفَرَ اللَّيْلُ الْحُقُولَ: غَطَّاهَا بِظُلْمَتِهِ وَسَوَادِهِ.. وإنما قيل لليل: كافر، لأنه يغطي الأشياء بظلمته .. قال لبيد:

يعلو طريقةَ مَتْنِها متواترٌ

فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

غَمَامُهَا: أيْ سَتَرَ، غطّى.

حتى إذا ألْقَتْ يداً في كافرٍ

وأجَنَّ عوراتِ الثُّغُور ظلامُها

وقال الآخر:

فَـــوَرَدَتْ قبـــلَ انـــبلاجِ الفجـــرِ وابـــنُ ذُكـــاءٍ كـــامِنٌ في كفْـــرِ

ابن ذكاء: الصبح. وذكاء: الشمس.

والكافر: البحر لستره ما فيه، ويجمع الكافر كفّاراً؛ وقالوا:

وشُقّ البحرُ عن أصحاب مُوسى وغُـرِّقـتِ الـفراعـنةُ الكـفّارُ

وهكذا كلُّ من ستر أو غطّى شيئاً، فقد كفره وكفّره.. فكَفَرْتُهُ إذَا غَطَّيْتُهُ، وكَفَرْتُهُ كَفْرًا سَتَرْتُهُ، كَفَرَ النِّعْمَةَ أيْ غَطَّاهَا مُسْتَعَارٌ مِنْ كَفَرَ الشَّيْءَ إذَا غَطَّاهُ.، وكَفَّرَهُ بالتَّشْدِيدِ نَسَبَهُ إلَى الْكُفْرِ أوْ قَالَ لَهُ: كَفَرْتَ..

ومما قاله الراغب الأصفهاني، وله كلام طويل، فبعد أن يذكر أنَّ الكُفْرُ في اللّغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالْكَافِرِ لستره الأشخاص، يقول: والزّارع لستره البذر في الأرض، فكفَرَ الزَّارِعُ البذرَ بالتراب فهو كافرٌ، وكَفَر الترابُ ما تحته: غطَّاهُ؛ ولهذا يُقَالُ لِلْفَلَّاح أو للزّارع كَافِرٌ، وللزرّاع: الكفّار.. وتقول العرب للزارع: كافر؛ لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض المثارة إذا أمرَّ عليها مالقه؛ أو لأَنهُ يَكْفُرُ الْبَذْرَ أيْ يَسْتُرُهُ..

قال تعالى: ﴿**... كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ...**﴾، أي أعجب الزرّاع نباته، وإذا أعجب الزرّاع نباته مع علمهم به فهو غاية ما يستحسن، والغيث المطر ههنا؛ وقد قيل: الكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين.

وعن قدم هذه المفردة يقول الفراهي في الفائدة ٦ من مفرداته: اعلم أن هذه المادة قديمة جدًّا، فتوجد في غير اللغة السامية، مثلاً: كَوَرْ في الإنجليزية: cover بمعنى ستر وغطّى. وفي العربية «كوّر»: لفَّ ...

ثلاثة مصادر :

كثيرة هي الآيات القرآنية، التي وردت فيها كلمة الكفر بمشتقاتها، حتى بلغت أكثر

من خمسمائة مرةً، ولعلّها بلغت ٥١٧ مرةً، منها هذه المصادر:

الكُفْرَانُ. الكُفْرُ. الكُفُورُ، تقول: كَفَر نعمةَ الله وبنعمة الله كُفْراً وكُفْراناً وكُفُوراً..

وفي استعمال هذه المصادر الثلاثة في التنزيل العزيز ذكروا فروقاً:

فالكُفْرَانُ في جحود النّعمة أكثر استعمالاً؛ ولكنها لم تأتِ إلاّ مرّةً واحدة، وذلك قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾،[1] والكُفْرُ في الدّين أكثر استعمالاً، وهي الأكثر وروداً في آيات القرآن الكريم، ومنها:

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي ٱلآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾.[3]

فيما الكُفُورُ في الاثنين معاً أي في جحود النعمة وفي الدين، وقد جاء خمس عشرة مرّةً، منها في الآية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾.[4]

إذن فمعاني الكفر عديدة كما لاحظنا، تدور حول التغطية والستر والتغليف والكتمان..، وهو نقيض الشكر وهو جحوده، وهو العصيان والامتناع، وهو البراءة... وهذه المعاني تنفعنا فيما يأتينا من المراد من الكفر والكافر اصطلاحاً، والذي لا يبعد كثيراً عن

---

١. سورة الأنبياء : ٩٤ .

٢. سورة آل عمران : ١٧٦ .

٣. سورة محمد : ٣٢ .

٤. سورة الإسراء : ٩٩ .

معاني الكفر لغةً.

الكفر اصطلاحاً :

وبعد أن اتضح لنا معنى الكفر لغةً وهو ستر الشيء وتغطيته.. نـأتي إلى المـراد منـه اصطلاحاً، والذي لايبتعد كثيراً عن الدلالة اللغوية، لكن ستر ما هو حقٌّ، أو ستر كـلّ مـا ثبت أنّه حقٌّ وعدل وصدق هو من الخطورة بمكان، وبالتالي فهو على الضـدِّ مـن الإيمـان وآياته ومعالمه ونعمه، التي حملتها كتب السماء وصدح بها أنبياؤها ورسلها، فالكافر جادٌ في تغطيتها وإخفائها عن الأنظار؛ بل هو نشط وجاد في إنكارها وجحودها مع وصولها وظهور أدلتها له واضحةً جليّةً؛ وأيضاً الكافر هو المغطِّي على قلبه إلى الدرجة التي يمنع الإيمان من الوصول إليه، فالكافر من لم يؤمن بالوحدانيّة، أو النبوَّة، أو الشـريعة، أو بثلاثتـها، أو مـن أنكر التوحيد والنبوة و المعاد مجتمعة أو واحدة منها، أو من كفر بالله أو بنعمته وجحـدها... وألحَقَ الفقهاء بالكافر من أنكر ضرورياً ـ أي بديهياً كالصلاة و الحج، مع التفاته إلى كونـه ضرورياً..؛ لذلك يذكر كلّ من الخليل الفراهيدي أنَّ الكفر هو: نقيض الإيمان. ويقال لأهـل دار الحرب: قد كفروا، أي عصوا وامتنعوا.

وابن الفارس: بعد أن يخلص من تعريفه للكفر، وأنه هو السـتر والتغطيـة... يقـول: والْكُفْرُ: ضِدُّ الإِيمَان، سُمِّيَ؛ لأَنهُ تَغْطِيَةُ الْحَقِّ. وكَذَلِكَ كُفْرَانُ النِّعْمَةِ: جُحُودُهَا وَسَتْرُهَا.

وتبعهم ابن منظور حيث يقول: الكفر، نقيض الإيمان. آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت؛... ويقال لأهل دار الحرب: قد كفروا أي عصوا وامتنعوا...

ثم يواصل قائلاً: وسمي الكافر كافراً؛ لأنه ستر نعم الله عزَّوجلَّ؛ ونعمه: آياته الدالـة على توحيده، والنعم التي سترها الكافر هي الآيات التي أبانت لـذوي التمييـز أن خالقهـا واحد لا شريك له؛ وكذلك إرساله الرسـل بالآيـات المعجـزة والكتـب المنزلـة والـبراهين الواضحة نعمة منه ظاهرة، فمن لم يصدق بها و ردّها، فقد كفر نعمة الله أي سترها وحجبها عن نفسه.

وقال الراغب: والكَافِرُ على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانيّة، أو النّبـوّة، أو

الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كَفَرَ لمن أخلّ بالشّريعة، وترك ما لزمه من شكر الله عليه. قال: ﴿**مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**﴾.[1]

فمعاني الكفر إذن عديدة كما لاحظنا لغةً واصطلاحاً، فبعد كونه التغطية والستر والكتمان، فهو نقيض الشكر وهو جحود النعمة وإنكار الحقّ، وهو العصيان والامتناع، وهو البراءة...

وعند المفسرين والفقهاء :

تعددت أقوالهم وتعريفاتهم للكفر، ويمكن إيجازها بأنه يدور حول إنكار الأركان العقائدية الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، فمن أنكر هذه الثلاثة أو واحدة منها، أو أنكر ضرورياً من ضروريات الشريعة كالصلاة والصيام والحج مع إلتفاته إلى كونه ضرورياً؛ عدَّ كافراً.

وهذه بعضها :

الطبرسي: والكفر في الشرع عبارة عن جحد ما أوجب الله تعالى معرفته من توحيده وعدله ومعرفة نبيه وما جاء به من أركان الشرع فمن جحد شيئاً من ذلك كان كافراً.

الرازي: الكفر عدم تصديق الرسول في شيء مما علم بالضرورة مجيئه، ومثاله من أنكر وجود الصانع، أو كونه عالماً قادراً مختاراً، أو كونه واحداً أو كونه منزهاً عن النقائص والآفات، أو أنكر نبوّة محمدﷺ أو صحة القرآن الكريم، أو أنكر الشرائع التي علمنا بالضرورة كونها من دين محمدﷺ كوجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج وحرمة الربا والخمر، فذلك يكون كافراً؛ لأنه ترك تصديق الرسول فيما علم بالضرورة أنه من دينه...

القرطبي: وأصل الكفر في كلام العرب: الستر والتغطية؛ والكفر ضدّ الإيمان وهو المراد

---

١. سورة الروم : ٤٤ .

في الآية. وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان.[١]

وفي الموسوعة: وَالْكُفْرُ شَرْعًا: هُوَ إنْكَارُ مَا عُلِمَ ضَرُورَةً أنهُ مِـنْ دِيـن مُحَمَّـدٍ صلى الله عليه وآله، كَإنكار وجود الصَّانِع، ونبوته عليه الصلاة والسلام، وحرمة الزنا ونحو ذلك...

السيد اليزدي: والمراد بالكافر شرعاً: من كان منكراً للألوهية أو التوحيد أو الرسالة، أو ضرورة من ضروريات الدين، مع الالتفات إلى كونه ضرورياً بحيث يرجـع إنكـاره إلى إنكار الرسالة.[٢]

وقفة قصيرة :

بما أننا نقرأ في اللغة أنَّ من مصادر كفّر: التكفير؛ من كَفَّرَهُ بالتَّشْدِيدِ أي نَسَـبَهُ إلَـى الْكُفْر، أوْ قَالَ لَهُ: كَفَرْتَ.. فهذه مسألة خطيرة جدًّا فيما تحمله من تبعـات تركـت آثارهـا السلبية على الاجتماع الإنساني، والسلم الأهلي، والتعايش مع المختلـف، فلطالمـا تقـع في التعامل مع الآخر المختلف كلياً أو جزئياً في رأي أو قول أو موقف، وبالذات على الجماعة المسلمة والأُمّة المسلمة، وكما يعبر على أهـل القبلـة الواحـدة، اسـتخدمت حـتى أسـيئ استخدامها لدرجة أن يُعطي شخص أو فئة لنفسها الحقَّ في سلب حيـاة آخـرين مخـتلفين عنها؛ لأنهم في منظورها لا يستحقونها، وإن كانوا أبرياء إلاّ من نقد وجّهوه أو رأي حملوه، فخلف ضحايا كثيرة لا في التاريخ البعيد والقريب بل وفي الحاضر، فألسنة الاتهـام بـالكفر

---

١. تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيـب، التفسـير الكـبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ وتفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١هـ) الآية ٦ البقرة.

٢. انظر في هذا كلّه مصادر اللغة ومنها كتاب العين، مَقَاييس اللغة لأَبِي الْحُسَـيْن أحْمَـدَ بْـن فَـارس بْـن زَكَرِيَّا(ت٣٩٥) : كفر، ولسان العرب لابن منظور: كفر؛ والزاهر في معاني كلمات الناس؛ أبو بكر الأنبـاري (المتوفى: ٣٢٨هـ) ١ : ١٢٩ـ ١٢٨؛ المعجـم الاشـتقاقي المؤصـل للـدكتور محمـد حسـن حسـن جبـل : ١٩٠٧ـ١٩٠٩؛ ومفردات القرآن، لعبد الحميد الفراهي (ت١٣٤٩هـ): ٣٠٦؛ مفـردات القـرآن، للراغـب الأصفهاني: كفر؛ الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٥ : ١٤؛ العروة الوثقى، للسيد كاظم اليزدي ١ : ٦٧ .

جاهزة لكي مخالف في فكرة أو موقف أو قول، حتى غدت مسألة التكفير مرضاً ووباءً خطيراً ابتليت به الساحة المسلمة عبر تاريخها وحاضرها، ووسيلةً سهلةً للسذج وذوي الأفق الضيق، ومرتعاً لمرضى القلوب والمتعصبين، فراحو يلوذون بها؛ لتسقيط الآخر المختلف معهم باتهامه بالكفر أو بالشرك أو بتضليله وتفسيقه وتبديعه، دون معرفة بأنَّ هذه المفردات حتى وإن وردت في التنزيل العزيز والسنّة الشريفة فمراداتها تتعدّد تضيق وتتسع أخرى، ويحدد ذلك أهل الخبرة والاختصاص ممن يُشهد له بالعلم والورع والتقوى، فهم الأعرف بضوابط ذلك، لا كلُّ من هبَّ ودبَّ، أو كلُّ ملاكه لباس أهل العلم لا غير، وجعل نفسه بكلِّ جرأة وصيًّا على عباد الله، يُقيّمهم، يصفهم بالضلال والكفر والفسوق، دون أن ينظر لنفسه، ويكتفي بعيوبه، فيصلحها، وكأنه خلق وعقيدته وسيرته من غير عيب، وكأنّه أصاب الواقع الذي يريده الله تعالى، وهو محال إلاّ على المعصوم إن أذن الله تعالى.

وعليه أن يلتفت إلى أنه إن ساقه الدليل العلمي للإيمان، فليعلم أنَّ للعامل الوراثي دوراً أساسياً في إسلام عموم الناس، إلاّ النادر منهم الذي كان للدليل العلمي أثره في إيمانه، فلا يمنَّ عليهم بذلك وليتق الله فيهم، وليبتعد عن العصبية فهي نتنة، وأن يلتفت إلى خطورة فتاويه بتكفير المختلف وتضليله وتنجيسه، وما يترتب على ذلك من أحكام فقهيّة وكلاميّة كثيرة.. وما يستتبعها من فرقة وتشتت بل وصراع دامٍ يعجز كلُّ خبير بجميع أدواته عن إحصاء مخلفاته وآثاره السيئة، والتي تركتها الفتاوى غير المسؤولة فيما مضى على الناس أفراداً وجماعات وأمماً عبر تاريخنا البعيد والقريب، وفي واقعنا وحاضرنا. لقد جاءت فتاواهم إما منطلقةً من ضيق أفق وقلّة معرفة، وإما مبنية على تأويل متعسف للنصوص، وإما جاءت لتحقيق مصالح المتنفذين من رجال سلطة وفقهاء سلطان، أو لأغراض شخصية وأحقاد وضغائن لوثت القلوب، فوجدت في ذلك متنفساً لها، أو لأنَّ نفوسهم المتصفة باللؤم والجهل والتعصب، صارت تُسيء إلى منهج السماء، فالله يوسّع رحمته ومغفرته:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً...﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

ومن نصب نفسه متحدثاً باسمه تعالى يُضيّقها! فضلاً عن كونها فتاوى صدرت بغير

هدًى، يكتنفها الجهل بوسائل الدعوة إلى الله تعالى والمحافظـة علـى دينـه، والـتي تتصـف بالبصيرة﴿**قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَـا أَنَـاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.[١]

وإنَّ السماء بكتابها المبارك وإن أقرَّت الوحدة في الخلق: ﴿**ياأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً...**﴾.[٢]

ودعت إلى أمّة واحدة متقيّة معتصمة بحبل الله تعالى، ذاكـرة لنعمـه تعـالى عليهـا، محذّرة من الفرقة والتشتت والتنـاحر: ﴿**وَٱعْتَصِـمُواْ بِحَبْـلِ ٱللهِ جَمِيعـاً وَلاَ تَفَرَّقُـواْ وَٱذْكُـرُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْـتُمْ عَـلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.[٣]

فقد أقرّت التنوع والاختلاف بل أسست لهما بين المخلوقات سواء أكانـت نباتـاً أو أنعاماً وطيوراً وهكذا في الملائكة: كما في الآيات: (٢ ـ ٤، ١٤ الرعـد)، (١٤١،٣٨ــ١٤٤، الأنعام)، (١ فاطر).

أما في البشر، فتعال معي إلى هذه الآيات المباركة، وهي تبين لنا هذا التنوع العجيب في النسب واللغة والرزق وفي الفضل والعلم وفي العقيدة...

﴿**يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَآئِـلَ لِتَعَـارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾.[٤]

﴿**وَمِنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ ٱلسَّـمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْـتِلاَفُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْـوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذٰلِـكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾.[٥]

---

١. سورة يوسف : ١٠٨ .

٢. سورة النساء : ١ .

٣. سورة آل عمران : ١٠٢ـ١٠٣ .

٤. سورة الحجرات : ١٣ .

٥ . سورة الروم : ٢٢ .

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.[١]

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.[٢]

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.[٣]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي ٱلأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.[٤]

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.[٥]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[٦]

جميع هذا وغيره جاء دليلاً على قدرته تعالى وعظمته وحكمته، وجلال الخلق وجماله، وديمومته وبقائه، ولو لم يكن هذا التنوع ضرورياً للحياة واستمرارها، ولسنتي التدافع و الابتلاء، وحتى لثواب الآخرة وعقابها: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾. لكان عبثاً، تعالى الله عنه علواً كبيراً.. ولا أحد يستطيع أن يوقف هذا الاختلاف أو يلغي ذاك التنوع، كما أنَّ أي محاولة للوقوف ضدَّ ذلك لا تعدُّ خلاف مشيئته وإرادته وحكمته في خلقه فقط بل عمل مضاد وعدواني على سلطانه

---

١. سورة المجادلة : ١١ .
٢. سورة الزخرف : ٣٢ .
٣. سورة يوسف : ٦٧ .
٤. سورة يونس : ٩٩ .
٥. سورة القصص : ٥٦ .
٦. سورة هود : ١١٨ ـ ١١٩ .

تعالى، فالتنوع والاختلاف في الآفاق والأنفس آيات وسُنّة كونية بلا شك، وظاهرة طبيعية بلا ريب؛ ثمَّ كيف يصحُّ الإيمان بوحدانية الله تعالى دون الإيمان بقدرته وتقديره، وقد خلق كلَّ شيء مقدّراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾؟![1]

فضلاً عن أنَّ تكفيرالناس وملاحقة عقائدهم يخلُّ بالأمن والسلام بينهم، ويعرض الحياة إلى مزيد من الدماء والدمار... ويبقى الدليل الهادئ، والحجّة الواضحة، والبرهان الصادق، عبر حوار متّزن ومنضبط؛ لبيان الفكرة الصائبة، والرأي الحق، والعقيدة الصحيحة، هو سيد الموقف: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.[2]

وليكن كلُّ ذلك: ﴿**بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾. ﴿**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ..**﴾.[3]

﴿**وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾.[4]

وقالوا: و ﴿**أَحْسَنُ**﴾ من أفعل التفضيل، جاءت وصفاً لأسلوب المجادلة المنشود؛ ويدل على اشتراك اثنين في صفة ما وزيادة أحدهما على الآخر، بمعنى أنه لا يكفى المجادلة بطريقة حسنة بل لابد من البحث عن طريقة أحسن!

فكم هو جميل ورائع أن يعرضَ كلُّ طرف حُجّته برفق ولين بعيداً عن أي تشنُّج أو إكراه أو تسقيط، وبالتالي:

﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ**﴾.[5]

---

١. سورة القمر : ٤٩ .
٢. سورة النمل : ٦٤ .
٣ . سورة النحل : ١٢٥ .
٤. سورة العنكبوت : ٤٦ .
٥. سورة النحل : ١٢٥ .

و: ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.[١]

متى بدأ الكفر في الناس؟

صحيح أنَّ إبليس كان أول من كفر، وأول من وصف بالكفر من المخلوقين، وقد وقع كفره استكباراً وعصياناً...

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.[٢]

أما الكفر في الناس فيبدو أنّه قديم جدًّا في عمق القرون الأولى للبشرية، وقد تكون بدايته بوقوع الاختلاف بعد أن كانوا أُمَّةً واحدةً:

﴿...وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾.[٣]

وفي الآية: ﴿...كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.[٤]

وقد تكون بدايته في قوم نبيِّ الله نوح عليه السلام، فهم أول من كان فيهم الكفر كظاهرة واسعة وخطيرة جدًّا، حتى امتلأت الأرض بكفرهم وعنادهم، وكان نوح أول نبيٍّ رسولٍ؛ جمعت له النبوّة والرسالة، بعث إليهم، فكانت دعوته الأكثر معاناةً، والأطول مدّةً؛ كما يظهر ذلك ـ بعيداً عن الأخبار وتضاربها ـ من لبثه في قومه كما في الآية:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.[٥]

---

١. سورة الحج : ٦٩ .

٢. سورة البقرة ٣٤ .

٣. سورة يونس : ١٩ .

٤. سورة البقرة : ٢١٣ ؛ انظر أقوالهم وأدلتها في كتب التفسير للآيتين، لم نذكرها خوف الإطالة .

٥. سورة العنكبوت : ١٤ .

والعجيب أنَّ لكفرهم القدرة المؤثرة على خلق بيئة وأجواء حتى على أجيالهم الآتية من بعدهم، كما يظهر من دعائه عليه السلام، الذي لم يكتف بأن وصفهم بالكفر، بل وصف كلّ من يلدوه ﴿**فَاجِراً كَفَّاراً**﴾، بما يصيرون إليه، ولعلَّ هذا حصل له من تجربته معهم، والكَفَّار مبالغة في الموصوف بالكفر، أي من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد.

﴿**وَ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَـذَرْهُمْ يُضِـلُّواْ عِبَادَكَ وَ لاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**﴾.[1]

وقرآنيًّا :

مما لا شك فيه أنَّ مفردة الكفر ومشتقاتها مصطلح قرآنيٌّ راحت آيات قرآنيّة كثيرة تفيض بالكلام عنه، ولا غرابة في هذا إذا ما عرفنا أنَّ كلَّ الرسالات السماوية بكتبها وأنبيائها جاءت لإنقاذ الناس جميعاً من الكفر ووبائه، حتى غدا الكفر وأهله موضوع وهدف كلِّ دعوة سماوية، راحت تطالب بنبذه والإطاحة به، وتدعو إلى توحيد الله تعالى والإيمان برسالاته،.. لهذا احتل الحديث عن الكفر والكافرين مكانةً واسعةً من التنزيل العزيز، فكثر ورود كلمة الكفر ومشتقاتها ومواضيعه في آيات قرآنيّة كثيرة؛ تاريخه، أسباب الوقوع في دائرة الكفر، تحذير التنزيل العزيز من الاتصاف به، أنواعه المستفادة من موارد استعماله في الآيات القرآنيّة، ما يتركه الكفر بأشكاله: الأكبر والأصغر أو الاعتقادي والعملي من آثار سلبية على الإنسان فرداً كان أو مجتمعاً أو أمّةً، الخزي والعذاب على أمم وأقوام وقرى فأهلكهم الله بسبب كفرهم به وبرسله وأنبيائه وكتبه، وبسبب ما ارتكبوه وزعماؤهم من قتل وظلم خاصة للأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين والصالحين، هذا من عواقب الكفر في الدنيا، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب أليم. وغير ذلك الكثير مما لا تتسع له هذه المقالة...

---

١. سورة نوح : ٢٧ ـ ٢٨ .

ولفظةُ الكفر ما إن تُسمع أو تُطلق؛ إلاّ ويتبادر إلينا هو الكفر بالله سبحانه وتعالى؛ ولا يعني تغطيته فهو أمر مستحيل، بل إنكاره أو اختلاق أندادٍ له وشركاء، ويشكل هذا أهم وأخطر أنواعه؛ لأنّها اللفظ الأوضح والمضاد للإيمان به تعالى، والذي اتّفقت كلّ الكتب السماوية وأنبيائها عبر البعثات الإلهية الكثيرة على توحيده والدعوة إلى عبادته وحده عزَّوجلَّ، والكفر هذا هو فعلاً الأصل الرئيس الذي تحدث عنه التنزيل العزيز، وصار يدعو إلى نبذه وتركه؛ لأنه على النقيض من دعوة السماء إلى كلّ الأمم، وما من رسالة سماويّة ولا رسول ولا نبيٍّ إلاّ وهدفه الإطاحة بالكفر وإزالته من أن يكون معتقداً للإنسان فرداً كان أو جماعةً أو أمّةً، وبديلاً عن: ﴿**أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾.[١] ﴿**وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا**﴾.[٢] حتى صارت هذه الدعوة هدف كلِّ نبيٍّ و رسولٍ صلوات الله عليهم، فهي دعوة نوح:

﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾ .[٣]

وهي دعوة هود:

﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾.[٤]

وهي دعوة صالح:

﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾.[٥]

وهي دعوة إبراهيم: ﴿**...إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ**﴾.[٦]

---

١. سورة المؤمنون : ٣٢ .

٢. سورة النساء : ٣٦ .

٣. سورة الأعراف : ٥٩ .

٤. سورة هود : ٥٠ .

٥ سورة الأعراف : ٧٣ ؛ سورة هود : ٦١ .

٦. سورة العنكبوت : ١٦ .

وهي دعوة شعيب:

﴿... قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ﴾.[١]

وهي دعوة عيسى:

﴿... وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...﴾.[٢]

وهكذا هي دعوة باقي الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وعلـيهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.[٣]

و هو منهج السماء إلى الناس جميعاً: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾،[٤] وإلاّ أنّهم ﴿قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.[٥] ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.[٦] صحيح أنَّ هذه الآية جاءت في النبيّ نوح عليه السلام وفي قومه، والتي تحمل نتيجة تلك الدعوة المباركة، إلاّ أنّها تصلح نتيجة لكل دعوات الرسل والأنبياء، فلم يؤمن بها إلاّ قليل!

هذا؛ ولكن التنزيل العزيز لم يحصر الكفر بهذا الموضوع على خطورته وأهميته، فقد وسعه ليشمل أنواعاً أُخر؛ يؤدي الكفر بها إلى الكفر بالله أيضاً، وهذا يعني أنّ هناك كفراً مباشراً وهو الكفر بالله، وهناك ما يؤدي إليه عبر الكفر بآياته؛ الدلائل والبراهين على وحدانيته وخالقيته لكلِّ شيءٍ، ولا خالق غيره، والكفر بملائكته وبما بعث من كتب ومن رسل، وباليوم الآخر، وهي أسس الإيمان:

---

١. سورة الأعراف : ٨٥ .

٢. سورة المائدة : ٧٣ .

٣. سورة الأنبياء : ٢٥ .

٤. سورة التوبة : ٥٤ .

٥ سورة التوبة : ٧٤ .

٦. سورة هود : ٤٠ .

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ...﴾.[1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِىَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.[2]

فتوفرت الآيتان المباركتان على ما يجب الإيمان به، وبيّنتا بشكل جليٍّ: الإيمان بالله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، وهي من أركان الإيمان، ولابدَّ من الاعتقاد بها، وإلاّ فهو الكفر كما في الآيات التالية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾.[3]

وكذا يقع الكفر حين لا إيمان بلقائه تعالى ولا باليوم الآخر:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.

فأهوال يوم القيامة يُنكرونها؛ فلا يعتقدون بحياة بعد الموت، فلا بعث ولا عقاب ولا ثواب.

* ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلأَوَّلُونَ﴾.

* ﴿قَالُواْ أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

* ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هـٰذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ﴾.[4]

* ﴿وَقَالَ ٱلْمَلأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلآخِرَةِ ...﴾.

---

١. سورة البقرة : ٢٨٥ .

٢. سورة النساء : ١٣٦ .

٣. سورة النساء : ١٥٠ـ١٥١ .

٤. سورة المؤمنون :٨١ ـ ٨٣ .

* ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾.

* ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

* ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.[1]

وغاية اعتقادهم وعنادهم في إبطال ذلك أن قال بعضهم لبعض أو قال القادة للأتباع على وجه الاستبعاد وسبيل التعجب والإنكار:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.[2]

يعنون بقولهم هذا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، أي يزعم أنكم تبعثون بعد أن فرّقتم كلَّ تفريق وقطعتم كلَّ تقطيع، وأكلتكم الأرض والسباع والطيور، أو بعد أن تكونوا عظاماً ورفاتاً وتراباً، والجديد المستأنف المعاد والمعنى أنكم يجدّد خلقكم بأن تنشروا وتبعثوا. ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾.

هل كذب على الله متعمداً حين زعم أنا نبعث بعد الموت وهو استفهام تعجب وإنكار!

﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾، أي جنون فهو يتكلم بما لا يعلم؟![3]

إذن فهم فريق من الناس، من المشركين لا يريدون الاعتراف والاعتقاد بيوم المعاد، فمثل هكذا اعتقاد يقيّد حركتهم؛ ويجعلهم يحاسبون أنفسهم، ويراقبون أنشطتهم في الحياة

---

١. سورة المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٧ .

٢. سورة سبإ : ٧ .

٣. انظر الآية ٧ سورة سبإ؛ وتفسيرمجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ بتصرف.

الدنيا، وهم لا يريدون ذلك، ولا يريدون لأنفسهم أن تُبنى وفق ذلك، بل يرفضونه مجرد تصور؛ حتى تبقى أفعالهم وأيدهم وألسنتهم طليقةً؛ يفعلون ما يتفق ومصالحهم، يقولون ما يحلو لأنفسهم؛ فلا من رقيب ولا من حسيب، وبالتالي لا يُحبون لقاء الله تعالى، ففي الآخرة لا فقط أجر وثواب، بل هناك لقاء مبارك تنتظره النفوس المؤمنة؛ فإنَّ «من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»!

فلقاء الله تعالى الناس إزاءه فريقان:

* فريق يحبُّ لقاء الله تعالى ويرجو ذلك، ويعمل له صالحاً، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا، وقد جاءت الآية التالية لتبين شرطي تحقق ذلك الرجاء، وحصول ذلك اللقاء والحب: العمل الصالح وعدم الشرك بالله تعالى:

﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً**﴾.[1]

يذكرون في سبب نزولها أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله فقال: إني أتصدق وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلاَّ لله، فيُذْكر ذلك مني وأُحْمَد عليه، فيسرُّني ذلك وأعجب به! فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يقل شيئاً، فنزلت الآية.

يقول الشيخ الطبرسي :

أي فمن كان يطمع في لقاء ثواب ربّه ويأمله ويقرّ بالبعث إليه والوقوف بين يديه، أو فمن كان يخشى لقاء عقاب ربّه. وقيل: إنّ الرجاء يشتمل على كلا المعنيين الخوف والأمل وأنشد في ذلك قول الشاعر:

فَلاَ كُلُّ مَا تَرْجُو مِنَ الْخَيْرِ كَائِنٌ وَلاَ كُلُّ مَا تَرْجُو مِنَ الشَّرِّ وَاقِعُ

﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً**﴾ خالصاً لله تعالى يتقرّب به إليه... ﴿**وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً**﴾ غيره من ملك أو بشر أو حجر أو شجر.

---

١. سورة الكهف : ١١٠ .

* فيما هناك فريق يُنكر الآخرة، ويكره ذلك اللقاء المبارك بالله تعالى، وهم أولئـك ﴿**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾، فيكره الله لقاءهم! و يا لَه من خسران عظيم وخطير لو كانوا يعقلون!

إذن فالكفر كما وردت به آيات قرآنيّة أُخرى يحمل الضديّة:

* للإيمان :

﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**﴾.[١]

* للشكر :

﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾.[٢]

* للإحسان :

﴿**أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَـدْ جَاءَتْـكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾.[٣]

* للعمل الصالح :

﴿**مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْره وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾.[٤]

* للتقوى :

﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**﴾.[٥]

﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾.[٦]

فهم فريقا الآخرة: المتقون والكافرون.

---

١. سورة التغابن : ٢ .

٢. سورة الإنسان : ٣ .

٣. سورة الزمر: ٥٨ ـ ٥٩ .

٤. سورة الروم: ٤٤ .

٥. سورة الزمر: ٧٣ .

٦. سورة الزمر: ٧١ .

كما أنَّ هناك آيات قرآنيّة توضح العلاقة بين الكفر وكلٍّ من قتل الأنبياء ونقض الميثاق والتكذيب بالآيات:

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.[1]

* ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.[2]

ظواهر خطيرة :

مما تحدث عنه التنزيل العزيز، وتعطي معنى التغطية والستر وهي من أهم معاني الكفر: (الجحود والكتمان والتلبيس)، وتُعدُّ من أخطر وأقبح ما واجهته جميع النبوات ورسالاتها ومنها الرسالة الخاتمة ونبيّها الخاتم هو تغطيتها وإخفاء آياتها وأحقّيتها بل وكتمان حتى صفات النبيِّ ومناقبه من قبل أعدائها والمناوئين لها؛ كبار قريش وعلماء اليهود والنصارى وغيرهم، وانطلاقاً من المعنى اللغوي لكلمة الكفر وهو التغطية والستر، فهي تلتقي مع المعنى اللغوي لكلمة (كتم) التي تعني الإخفاء والستر والطمس، فإنهم استحقوا وصفهم بالكفر، فكل من كتم أو غطّى حقًّا أو آيةً من آيات الله تعالى، أو بعثته ونبوّته صلى الله عليه وآله، وهم يعلمون بأنه حقٌّ، فهو كافر.

وقد غدت من أخطر وأغلب معاني الكفر أسلوباً لمحاربة الرسالة حتى صار ظاهرة في مجتمع مكة والمدينة من قبل رؤساء قريش ورؤساء اليهود، يغطّون ويكتمون ما علموه حقًّا، والله تعالى يحثُّ على إظهار الحق وبيانه وإيضاحه، وينهى عن إخفائه وكتمانه وتخليطه؛ والأولى صفة حسنة جميلة يُذاع بها الحقُّ وتتسع مساحته ويكثر به المؤمنون، فيما الثانية صفة سيئة قبيحة يضيّق فيها على الحقِّ وينتشر بسببها الباطل، وتضطرب بها الأمور

---

١. سورة النساء : ١٥٥ .

٢. سورة التغابن : ١٠ .

وتختلط على الناس...

وقد تناولت آيات قرآنيّة هذه الظواهر :

التلبيس ... الكتمان... الجحود، وهي مظاهر الكفر ومعانيه الأكثر شيوعاً وخطـورةً، تناولتها بالنهي عنها، ورفضاً وتوبيخاً لأهلها

﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[١]

﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[٢]

كَتَمَ الشيءَ كَتماً وكِتماناً: ستره وأخفاه... كَتَّمَ الشـيءَ: بـالغ في كِتمانـه .. فـالكتم، والكتمان: الإخفاء، وضده: الإظهار، ومنه الكتم: ورق يصبغ به الشيب...

وألبس الشيءُ الشيءَ: غطّاه، وألبس النباتُ الأرضَ والغيمُ السماءَ...

اللبس: الخلط، تقول العرب: لبست الشيء بالشيء: خلطته، والتـبس بـه: اخـتلط، وقال العجاج:

لمـا لبسـن الحـق بـالتجنـى

وجاء ألبس بمعنى لبس وقال آخر:

وكـتـيـبـة ألبـستها بكـتـيـبـة حتى إذا التبست نفضت لها يدى

وهكذا لبَّس عليه الحقائقَ: خلَّطها وسـتر حقيقتَهـا وأظهـر خِلافَهـا، جعلـها غـير واضحة، واللبس خلط الأمور بعضها ببعض: نهوا عن أن يخلطوا الحـقّ بالباطـل، الصـدق بالكذب، الأمانة بالخيانة...

ولخطورة اللبس هذا فقد تمَّ إضلال كثير من الناس على مرِّ التاريخ.

يقول الإمام عليٌّ عليه السلام: «... فلو أنَّ الباطل خلص من مـزاج الحـقّ لم يخـفَ

---

١. سورة البقرة : ٤٢ .

٢. سورة آل عمران : ٧١ .

على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خلص من الباطل، انقطعت عنه ألسنُ المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضِغثٌ، فيمزجان...».[١]

ولا يقع لبس الحقّ بالباطل إلاّ ويكون الحقُّ مكتوماً، وقد نعى الله عليهم كتمهم الحقَّ مع علمهم أنه حقٌّ. فأحبار اليهود وعلماء النصارى ألبسوا على الناس دينهم، وكتموا ما أنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله مع أنهم يعلمون أنّه الحقُّ الذي جاءت به كتبهم، فنبوّته وصفته في كتبهم.. فاللبس والكتمان وكذا الجحود وسائل ضدَّ ما أنزل الله تعالى؛ وما اتصف به رسول الله صلى الله عليه وآله، استخدمهما علماء اليهود والنصارى مثل كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وابن صوريا وزيد بن التابوه وغيرهم في حربهم ضدَّ رسالة السماء التي حملها رسول الله صلى الله عليه وآله فخلطوا لهم الغث بالسمين والسقيم بالسليم حتى ألبسوا على الناس دينهم وكتموا أمر ﴿**...ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ...**﴾.[٢] مثبتاً فيهما... فهم علموا الحقَّ ولكنهم أنكروه، وغطّوا ما هو ظاهر ومذكور في كتبهم. ﴿**ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.[٣]

فأهل الكتاب: أحبار اليهود وعلماء النصارى، إما أنهم كتموا نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وستروه عن الناس وكتموا أمره؛ وهم ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾. وإما أنهم كتموا أنّ البيت الحرام قبلتهم وقبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء؛ وهم ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾، وإمّا أنهم كتموا الاثنين معاً.

يقول الطبري: وقوله: ﴿**لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ**﴾ وذلك الحقّ هو القبلة التي وجه الله عزّوجلّ إليها نبيَّه محمداً صلى الله عليه وآله، يقول: فولّ وجهك شطر المسجد الحرام التي كانت

---

١. معاجم اللغة، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ نهج البلاغة: الخطبة: ٥٠ .

٢ سورة الأعراف : ١٥٧ .

٣. سورة البقرة : ١٤٦ .

الأنبـياء من قبل مـحمدﷺ يتوجهون إلـيها. فكتـمتها الـيهود والنصارى، فتوجه بعضهم شرقاً وبعضهم نـحو بـيت الـمقدس، ورفضوا ما أمرهم الله بـه، وكتـموا مـع ذلـك أمـر مـحمدﷺ وهم يجدونه مكتوبـاً عندهم فـي التـوراة والإنـجيـل. فـأطلع الله عزَّوجـلّ مـحمداًﷺ وأمته علـى خيانتهم الله تبـارك وتعالـى، وخيانتهم عبـاده، وكتـمانهم ذلـك، وأخبر أنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك علـى علـم منهم بأنّ الـحقّ غـيره، وأنّ الواجـب علـيهم من الله جلَّ ثناؤه خلافه فقال: لـيكتـمون الـحقّ وهـم يعلـمون أن لـيس لهـم كتـمانه، فـيتعمدون معصية الله تبـارك وتعالـى.

يقول الطبرسي: أخبر الله سبحانه بأنهم يعرفون النبيّﷺ وصحة نبوَّته فقال ﴿**الَّذِينَ آتَيْناهُم**﴾، أي أعطيناهم ﴿**الْكتَابَ**﴾ وهم العلماء منهم ﴿**يَعْرِفُونَـه**﴾ أي يعرفون محمّداً وأنـه حقّ ﴿**كمَا يَعْرفُون أبنَاءَهُم**﴾، قيل والضمير في يعرفونه يعود إلى العلم من قولـه من العلـم يعني النبوة وقيل الضمير يعود إلى أمر القبلة أي يعرفون أن أمر القبلة حق عن ابن عباس، فإن قيل: كيف قال يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وهم كانوا يعرفون أبناءهم من جهة الحكم ويعرفون أمر النبيّﷺ من جهة الحقيقة؟ قيل: إنه شبَّه المعرفـة بالمعرفـة ولم يُشـبِّه طريـق المعرفة بطريق المعرفة وكل واحدة من المعرفتين كـالأخرى وإن اختلـف الطريقـان: ﴿**وإنَّ فَريقاً منهُم لَيكتمُونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، إنما خصّ الفريق منهم؛ لأنّ من أهل الكتـاب مَنْ أسلم كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما.[1]

وقال تعالى:

﴿**يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.[2]

يقول أبو حيان: والظاهر أنه أنكر عليهم لبس الحق بالباطل، وكتم الحق، وكأن الحق منقسم إلى قسمين:

---

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠ هـ) : الآية .

٢. سورة آل عمران : ٧١ .

قسم خلطوا فيه الباطل حتى لا يتميز، وقسم كتموه بالكلية حتى لا يظهر.

﴿... **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ جملة حالية تنعي عليهم ما التبسوا به من لبس الحق بالباطل وكتمانه، أي: لا يناسب من علم الحق أن يكتمه، ولا أن يخلطه بالباطل، والسؤال عن السبب سؤال عن المسبب، فإذا أنكر السبب فبالأولى أن ينكر المسبب، وختمت الآية قبل هذه بقوله: ﴿**وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾ وهذه بقوله: ﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، لأنّ المنكر عليهم في تلك هو الكفر بآيات الله، وهي أخصّ من الحق، لأنّ آيات الله بعض الحق، والشهادة أخص من العلم، فناسب الأخص الأخص، وهنا الحق أعم من الآيات وغيرها، والعلم أعم من الشهادة، فناسب الأعم الأعم.

وقالوا في قوله: ﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ أي: إنه نبيّ حق، وإن ما جاء به من عند الله حق.

وقيل: قال: ﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ليتبين لهم الأمر الذي يصح به التكليف، ويقوم عليهم به الحجة. وقيل: ﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ الحق بما عرفتموه من كتبكم وما سمعتموه من ألسنة أنبيائكم. وفي هذه الآيات أنواع من البديع. الطباق في قوله: الحق بالباطل، والطباق المعنوي في قوله: لم تكفرون وأنتم تشهدون، لأنّ الشهادة إقرار وإظهار، والكفر ستر.[1]

وهكذا كان موقفهم حين يسألهم المشركون عن رسول الله ﷺ وعن دعوته المباركة.

ففي سبب النزول :

إنَّ رؤساء مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد، أما وجد الله رسولاً غيرك؟ أو ما نرى أحداً يصدّقك فيما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد أنّك رسول الله كما تزعم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُواْ**

---

١. تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ) .

أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.[١]

وبالتالي: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَابِ أُولـٰئِكَ يَلعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللاَّعِنُونَ﴾.**[٢]

قيل في سبب النزول :

إنَّ المَعنيَّ بالآية اليهود والنصارى مثل كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وابن صوريا وزيد بن التابوه وغيرهم من علماء النصارى الذين كتموا أمر محمد ونبوته وهم يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل مثبتاً فيهما عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر أهل العلم.

وقيل: إنه متناول لكلِّ من كَتَم ما أنزل الله وهو اختيار البلخي وهو الأقوى لأنه أعم فيدخل فيه أولئك وغيرهم.

لقد حَثَّ الله سبحانه على إظهار الحقِّ وبيانه، ونهى عن إخفائه وكتمانه، فقال: ﴿إنَّ الذين يكتمون﴾ أي يخفون ﴿ما أنزلنا من البينات﴾ أي من الحجج المنزلة في الكتب ﴿والهدى﴾ أي الدلائل؛ فالأول علوم الشرع والثاني أدلة العقل فعمّ بالوعيد في كتمان جميعها.

وقيل: أراد بالبينات الحجج الدالة على نبوته عليه السلام وبالهدى ما يؤّديه إلى الخلق من الشرائع.

وقيل: البينات والهدى من الأدلة وهما بمعنى واحد وإنما كرر لاختلاف لفظيهما. ﴿من بعد ما بيـّنّاه للناس في الكتاب﴾ يعني في التوراة والإنجيل من صفته عليه السلام ومن

---

١. سورة الأنعام : ٢٠ .

٢. سورة البقرة : ١٥٩ .

الأحكام...

﴿... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللهِ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

مما ذكر في المراد بهذه الشهادة أن الله تعالى بَيَّن في كتابهم صحّة نبوة محمدﷺ والبشارة به، وقيل: المراد بها أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كانوا حنفاء مسلمين، فكتموا هذه الشهادة وادعوا أنهم كانوا على دينهم. فهذه شهادة من الله عندهم كتموها...[2]

وأما مشركو مكّة، سواء أكانوا أولئك الذين هم أهل التوراة والإنجيل، أم هم مشركو مكة، فهم يعرفون أنما هو إله واحد لا آلهة متعددة، وأنّ محمداًﷺ نبيّ مبعوث من قبل الله الواحد، وبالتالي فكلا الفريقين ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

فقد أطلقت عليهم مفردة (الكفر)، نظراً لتغطيتهم على الحقِّ الذي عرفوه، ولأنَّهم لا فقط كتموا ما علموه، بل صدّوا الناس عنه، وشوَّهوه، وقاتلوا أتباعه بدءاً برسول اللهﷺ الذي خبروه وعرفوه بالصدق والأمانة، فهذا عمرو بن هشام كبيرهم، وقد كان يُكنى بأبي الحكم، فكنّاه النبيﷺ أبا جهل؛ لسوء مواقفه منه ولشدة عدائه وإيذائه له ولمن أسلم، وصفه التنزيل بالكفر وهو وصف دقيق بسبب ما كان يعتمل في صدره من كتمان للحقِّ الذي نزل على قلب النبيﷺ عناداً وجحوداً واستكباراً ودفاعاً عن مصالحهم وتسلطهم، حتى مع وضوحه أمام عينيه وأعين أتباعه من مشركي قريش، انظره في مواقفه الظالمة لرسول اللهﷺ وتنكره لدعوته، وكان من مواقفه العديدة؛ أن طاف بالبيت ذات ليلة، وكان معه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبيﷺ.

فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال له: مه! وما دلك على ذلك؟!

قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقله وكمل رشده

---

١. سورة البقرة : ١٤٠ .

٢ . انظر تفسير مجمع البيان، للطبرسي: الآيتان. بتلخيص .

نسميه الكذاب الخائن؟ والله إني لأعلم أنه لصادق!

قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟

قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى، لا أتبعه أبداً فنزلت:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.[1]

وللبحث صلة...

١. سورة الجاثية : ٢٣ .